

## من فلسطين إلى بريطانيا

الفلسطيني يعامل أسوأ معاملة من قبل إسرائيل، القتل والتعذيب بموافقة المحكمة العليا الإسرائيلية، هدم البيوت برنامج يومي، الحصار الكامل، وألاحظ أن الفلسطيني يشير إلى الديمقراطية ومنافاتها لكل ذلك، فيأتيه الرد الإسرائيلي واضحاً صريحاً: الديمقراطية لشعبنا وليس لعدونا، فيرد الفلسطيني هذه ليست ديمقراطية، فيأتي الجواب: هذه ديمقراطيتنا!

في زيارة لبريطانيا وجدت حركة إسلامية ناشطة بكل معنى الكلمة، سألت رمزاً من رموزها: أخي جزاكم الله ألف خير عن هذا النشاط الواسع الكبير، وأود السؤال: إلى ماذا تهدفون؟

أجاب الرجل: نريد إقامة الخلافة الإسلامية.

جاءت الإجابة خلافاً لكل ما أتوقع، وكأن رأسي قد رمي بحجر كبير، قلت لالأخ: لقد أقمنا في الأندلس أرقى وأفضل حضارة، وبعد أكثر من سبعة قرون اقتلعنا من جذورنا، وكنا أكثر من ثلاثة ملايين، ثلث عبر البحر هائماً على وجهه - من هول المصيبة - وثلث أجبر تحت التعذيب ليعلم أنه تنصر، ولم يخلص من القتل والتعذيب، وثلث مات غرقاً بعد خرق السفن التي تحمله أو مات وقتل على أيدي محاكم التفتيش.. مصير مخيف!

هذا مصيرنا في الأندلس، وأنتم تركتم دولكم لتقيموا  
(خلافة) في بريطانيا أم الاستعمار؟

قال الرجل: بريطانيا ديمقراطية، والديمقراطية تسمح  
لنا ولغيرنا.

أجبت بألم شديد: الديمقراطية لم توجد كي تنتج أو تتج  
(خلافة إسلامية)، وكي تحصل على هذا فالأمر يتطلب - على  
الأقل - حرباً عالمية ثالثة وربما رابعة..

أيها الحبيب أمامك القاهرة وبغداد ودمشق والرباط،  
فحاول هناك، أما لندن فتذكر ما حصل لأهلك في الأندلس،  
ومن جرب المجرب حلت به وبأهله وجيرانه وأحابه (الندامة)!

### لم تقولون ما لا تفعلون؟

في حياة الناس قيم عظيمة وممارسات قبيحة؛ لذا شددت  
الأديان عمومًا على هذه الحالة الغريبة، دساتير رائعة وتطبيق  
أكثر من سيء، آداب عالية وواقع أسود؛ لذا جاء الاستنكار  
لذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾  
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصف: ٢-٣).

إنه (النفاق) أن يعلن الإنسان شيئاً جميلاً ويبطن نقيضه.

عبد العزيز قباني يناقش هذه القضية - بكل أبعادها - فيقول<sup>(١)</sup>: إن التمنيات والآمال والمبادئ دساتير وبرامج الأحزاب والهيئات والحركات السياسية وتنظيرات المثقفين - خصوصاً - في العالم العربي، ومثله العالم الثالث، أما الممارسات فهي على النقيض من ذلك تماماً.. الديمقراطية أمنية، والاستبداد والدكتاتورية ممارسة وواقع، الوحدة العربية أمنية وأمل، والتجزئة والقطرية ممارسة وواقع، التنمية أمنية وأمل، والحرص على الواقع القائم ممارسة.. من هنا تنشأ (الأزمة)، تعارض وتناقض بين المصلحة الخاصة والعامة، بين المبدأ والممارسة، بين النظام والتفلسف، بين الإرادة والعقل.. والسؤال: لماذا يفعل (القادة) خلاف ما يقولون، الأمر يشمل قادة الأحزاب والدول، فيوقعون مؤسساتهم في (أزمة)؟ الآمال والشعارات والتمنيات والمبادئ كلها من عالم (القيم) لكنها تظل من عالم (الرجاء)؛ لأنها غير قائمة في السلوك..

قيم الواقع هي (قيم العصبية) وهي نظام قيم شامل متكامل، تتكامل فيه الإرادة والعقل والحركة والنظام..

ومن قيم (العصبية) في مجتمعنا العربي: الأنانية والاستبداد والنزوع الطاغية للسلطة والقوة والتراتبية بهما، كذلك التعصب الفئوي والانفلاق والتبعية لجماعة العصبية،

(١) العصبية ص (٢٢٢).

وفقدان الاستقلال (ضمن إطار العصبية) والاستقلال بها عن غيرها من العصبيات.

من هنا (تحتضن) العصبية بشرية الإنسان، وما فيها من نوازع أولية - وهي الجزء المجرد من الحرية - بسبب كونه محكومًا بالحتمية والضرورة، ولإمكان التحرك والتنبؤ بالسلوك.. لذا فكل من يكون (مسكونًا بالعصبية) لا يعترف في أعماقه، بل لا يقدر أن يعترف بقانون، ولا بسلطة قانون (إلا بالردع)؛ لأنه إرادته - بفعل قيمه، هي القانون؛ لذا فهو يريد أن يكون (نافذًا وقادرًا) على كل شيء بقوته، فإن تعذر (فبقوة غيره)، وليس بقوة (القانون والعدالة).. وهذا ما يسهل (استدراجه) للوقوع في مثل (فخ الاستخبارات) والتزام لصاحب السلطة - الأكبر والأقدر - وهذا يجعله (مدفوعًا) على الانتصار على القانون والمبدأ، وليس (بهما)؛ لأنه لا يشعر بقوته وسلطته ووجوده إلا بهذا (النوع من الانتصار)، فالضعيف - في نظره - هو الذي يرضخ للقانون ويحترمه وشعاره (إنما العاجز من لا يستبد) ... أ.هـ.

حاولت أن لا أختصر النص - على طوله - ليكون المعنى واضحًا، ومن يشك في هذا أدعوه للتفكير والتدبير في الحكام العرب المستبدين، وكيف أداروا حكوماتهم؟ وكيف أداروا الصراع داخليًا وخارجيًا؟ ففي الأعم الأغلب كان الطاغية

جاهلاً مغروراً، وهو (أسد عليّ وفي الحروب نعامة)، من هنا تكاثرت علينا الهزائم ووصلت حد التخمة.

يسأل وزير رئيسه - من مجانين العظمة - عن مرجع قانوني لأمر يصدره، فيرد - بكل صلافة ووقاحة - ما هو القانون؟ أليس ما أقوله لك هو القانون؟ لذا عد رسولنا عليه السلام من علامات الساعة (... أن يكون زعيم القوم أرذلهم) إنه حكم المنافقين الأراذل، وكفى به فخراً وعزة وكرامة...!

### العلاقة بين الحركة والنظام

كل نار تصير رماداً، وكل حركة مجاهدة إذا حكمت وتحكمت صارت محافظة، هل يمكن اعتبار ما تقدم من القوانين (في الحركات)؟ وهل يمكن اعتبار ذلك في (الحضارة) أيضاً؟

لنبدأ - من الحضارة - المؤرخ البريطاني (توينبي) - مفسر التاريخ - يرى أن حركة الحضارة تشبه (صاعد الجبل)، فهولا يصعد عمودياً، بل يسير يميناً وشمالاً، مع الارتفاع قليلاً قليلاً حتى يصل (القمة)، هذه صورة واضحة معروفة، وله صورة ثانية يمثلها بالإنسان الذي ينسج قماشاً أو سجادة، يبدأ بحد الخيوط بطول السجادة أو القماش، ويعرف هذا بـ (السدى) ثم هناك خيوط عرضية تعرف (باللحمة)

الناسج باقٍ في مكانه والنسج مستمر، وهكذا يتكامل النسج شيئاً فشيئاً (يلاحظ ذلك في النسج اليدوي).

بعض المشتغلين في تفسير التاريخ - ومنهم عبد الرحمن بن خلدون - يتصور أن حركة التاريخ والتحضر، تسير على شكل دائري مغلق، تبدأ بداوة يتبعها تحضر، ثم ترف لتعود بداوة من جديد...

بعض المفسرين يتصور الحركة كفصول السنة: شتاء يتبعه ربيع حضاري، وصيف يتبعه خريف وهكذا...

البعض يتصور حركة التحضر مثل نمو الإنسان: طفولة ثم مرحلة الشباب، يتبعها مرحلة الرجولة، ثم الشيخوخة والهرم..

عالم الاجتماع د. علي شريعتي يطلق نظرية يسميها (الحركة والنظام)<sup>(١)</sup> وملخصها: ثمة مبدأ يتم تعاطيه كثيراً على صعيد (علم الاجتماع)، وهو مبدأ تحول الحركة إلى نظام، وحاصله: أنه تظهر أحياناً - في المجتمع - حركة تمحل أفكاراً وعقائد وتطلعات، وعادة ما يكون وراء الحركة عناصر شابة، تنشط في التحرك، وتميل إلى التغيير والتجديد.. تشكل الحركة مناخاً اجتماعياً، يتطلع للتغيير، ويوظف أتباعها كل ما لديهم

(١) التشيع العلوي والتشيع الصفوي، ترجمة حيدر مجيد ص (٥٤) طبعة أولى عام ٢٠٠٢م، دار المير.

من أفكار وحركات وشعارات لخدمة أهدافهم، ويجعلون كل شيء بمنزلة (الوسيلة) لتحقيق (هدف النهوض)، لكن ما أن تحقق النهضة بعض أهدافها، وتصل لحد معين، حتى تبدأ بالاصطدام بعراقيل وموانع ذاتية أو خارجية، هنا تبدأ (بالتوقف والجمود) وتتسلخ عن طابعها الحركي التغييري، وعندها تبدأ (الأزمة).

إن من خصائص (النهضة) - أي نهضة - أن تبدأ وهي تحمل توجهاً حركياً، يوجه كل شيء لتحقيق (الهدف المنشود) أولاً.. يعقبه ويليه ثانياً (اصطدام) لا محالة بمواقع وعراقيل، حتى تتسلخ الحركة عن طابعها (التجديدي) لتعود جامدة، حالها حال الوضع الذي (ثارت) عليه، وقامت من أجل تغييره..

كل مذهب أو مدرسة اجتماعية أو دينية أو طبقية أو قومية تظهر على أساس (تلبية) متطلبات زمانية، وتدفع أتباعها نحو العمل من أجل تحقيق هذه الآمال والتطلعات، وتجسيد الشعارات، ثم تواصل سيرها باندفاع ورغبة جامحة في كسر (القيود والحواجز) التي تعترض طريقها، وهي عادة ما تكتسب طابعاً (نقدياً عنيفاً)، بل تحتج على كل شيء، وتقترح بديلاً عن كل حالة راهنة، أو وضع موجود... فإذا (تحققت الأحلام) وحصل التحول المطلوب، ووصلت الجماعة إلى أهدافها - كلاً أو بعضاً - أو وصلت على (أوج) قدرتها، وبلغت السقف لنموها، هنا (تتطفئ) جذوة (التغيير) في النفوس، وتضع الحرب أوزارها،

ولم يعد أحد في طريق الثوار، عندها لا يبقى (لزوم) للتوتر ولا للانفعال، وهنا تأخذ (الحالة الثورية) بالتقلص والضمور تدريجياً حتى تتلاشى نهائياً... وساعتها تتحول (الحركة إلى نظام) ذي طابع محافظ، ويتحول أتباعها من خندق المعارضة على خندق السلطة..

وبالطبع ستظهر لديهم نزعة (الحفاظ على موقعهم السياسي والاجتماعي) ضد كافة الأخطار، التي تحيط بهم، وسينظرون - من الآن فصاعداً - إلى كل حركة (تجديد) على أنها (مؤامرة)، تستهدف (تقويض النظام) وسيحكم على أتباعها (بالتمرد والغوغائية) وتلصق بهم (تهمة الخيانة العظمى)، كل ذلك تمهيداً لإنزال أشد وأقسى العقوبات بهم..

من يقرأ التاريخ من هذه الزاوية، يمكن أن يعثر على الكثير من الشواهد تؤيد مبدأ تحول (الحركة إلى نظام) ثابت وكيان اجتماعي جامد، يخيم على المجتمع ويهيمن عليه (كقوة منظمة)، تبدو في أوج قوتها وقدرتها ونشاطها وحيويتها، لكنها في الواقع قد بلغت نقطة (التوقف والركود)... أ.هـ.

استعرضت هذه النظرية وتذكرت ما حصل للثورة المصرية، وما انتهت إليه من حكم مستبد لا مثيل له، وكذلك النهاية التي وصل لها حزب البعث في العراق... إلى عشرات

الأمثلة والسؤال: هل يمكن تلافي هذا المصير القاتل بأن تبتعد الحركة أو الحزب أو المنظمة - مثل فتح - عن الحكم وتتحول للمعارضة مدة تجعلها تستعيد نشاطها وتتخلص من (الترهل والفساد) الذي ضربها. وهنا أستذكر ما فعله الحزب الشيوعي الصيني - حين وصل للحكم - إذ أغلق أبواب الانتساب إليه، كي يحول دون وصول العناصر الانتهازية إليه.

الأمر الآخر المفيد ما نجده في السنة النبوية، حيث تكرر التنبيه على أن الخوف ليس من الفقر، ولكن من إقبال الدنيا، ثم التنافس عليها، (فتهلككم كما أهلكت الذين من قبلكم)...

في المرحلة الأولى للحركة يقبل عليها مخلصون وعشاق مبادئ ومثُل.. فإذا وصلت الحركة أو الحزب للحكم هجم الألوفا من النفعيين والانتهازيين والمنافقين، وليس بينهم مخلص ولا رجل يعشق المثل.. إنهم (جيوش الذباب) تتجمع ولا يهتمها سوى (الفنائم)، هذا (الطاعون) يفتك بأفضل المؤسسات والحركات على الإطلاق..

القرآن الكريم يتحدث عن نوع خاص من البشر، أولئك الذين كانوا ينفقون في سبيل الله يريدون وجه الله تعالى، وذلك قبل حصول التحول الكبير في تاريخ الإسلام، (قبل فتح مكة) وما حصل بعد ذلك.. يقول تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهُ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ  
الْفَتْحِ وَقَنْتَلٌ أَوْلَيْتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا  
وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى ﴿ (الحديد ١٠) .

تفريق دقيق ينبغي عدم تجاهله...

### أزمة مثقفينا

العالم تضربه أزمات اقتصادية وكوارث طبيعية، والمثقفون جزء من هذا العالم المتوتر والمتشنج باستمرار، فهل من المعقول أن يبقى (المثقفون) بعيداً عن هذا الجو، أو بمنجاة منه؟ مفكرون كبار في الشرق والغرب يدقون ناقوس الخطر، من العرب د. برهان غليون ود. أحمد موصلي ود. لؤي صافي، ود. هاشم شرابي - أستاذ بيل كلنتون - وهاشم جعيط وغيرهم كثير.. ما يهمنا هو مركز المثقف فهو (رائد) ويمثل (بوصلة)، فإذا أصيب (بأزمة) فستعكس سريعاً على مجتمعه، فهم (ملح البلد) فمن يصلح الطبخ إذا الملح فسد؟

أبدأ مع د. برهان غليون وكتابه: (اغتيال العقل) فهو من رجال علم الاجتماع، وشغله الأول (الهم الثقافي) فهو يقول<sup>(١)</sup>: إن تعلق النخب الاجتماعية عموماً بثقافة يفترض عند تحققها

(١) اغتيال العقل ص (١١٢) طبعة سادسة.

(نفي الثقافة الشعبية وما يرتبط بها) ويوجد وضعية تظهر فيها (الثقافة القائدة) كاستعمار للعقل، وكغزو أجنبي للثقافة، وهذا لا يمكن إلا أن يدفع المجتمع إلى تنظيم (رد فعل.. فعل سلبي) يسعى من خلاله إلى طرد هذه الثقافة، أو الفئة المرتبطة بها في ذات الوقت، طردها وإبعادها من الجماعة، فإن أخفقت - هذه المحاولة لسبب ما - كانت النتيجة التحقيق لذلك هو (تحلل الثقافة القومية)، وتفكك كافة النظم (المعيارية والاعتقادية)، القائمة على أساس وحدة المعاني والمضامين والقواعد والدلالات في المجتمع، وغالباً ما يأخذ هذا الانحلال الثقافي صورة الانكفاء الجماعي عن الثقافة (الموحدة) إلى الثقافات ما قبل (القومية).  
والنتيجة: أن المجتمع يفقد (وحدته الثقافية) كما تفقد الثقافة وظائفها السياسية والعقلية والإبداعية، الداعية لصالح (هدف واحد وحيد) تصب فيه، بشكل فرضي كل الأوهام والمخاوف والأحلام والآمال الاجتماعية، أي تحقيق الذات والاطمئنان إلى الوجود... ا.هـ.

إنه تصارع أو تدافع الثقافات، الأقدر يزيح وقد يزيل الأضعف ثم يحل مكانه.

وهنا يشتد الصراع بحيث يهدد الأمة بالانقسام والتشردم.

المفكر القش يتحدث عن هروب المثقف العربي من نفسه وشعبه ليلتصق بالغرب وثقافته، وخلال ذلك لا يجد عيباً ولا حرجاً أن يتحول إلى (سمسار) من نوع معين، أو وكيل ثقافي لكن لغير ثقافته..

يقول القش<sup>(١)</sup>: وهكذا يتحرر المثقف الحديث من عبء تمثيل الحركة الجماهيرية، ومجالاتها (لغالب)، بل يتجه ليصبح ممثلاً لهذا الغالب و(خواجاً) السلطة، إنه يستند في وضعه (الوسيط) بين السلطة والشعب، يستند على (سلطة شكلية) يستمدها من فوق (سلطة العلم والثقافة) العصرية، التي تحاول أن تترث وتتنافس سلطة المثقف الشعبي العضوي... هنا ينسى المثقف أهله ويتذكر نفسه، ويريد استثمار ما عنده... ولا عيب عنده أن يتحالف مع عدو أمته.

د. لؤي الصايفي يرى أن ثمة أزمة شاملة تضرب بعض المثقفين العرب، فيقول<sup>(٢)</sup>: تنبع أزمة المثقف العربي من أنه أسير ثقافة، أنتجها (المثقف الغربي)، فمثقفنا يعيش (خارج الزمن الثقافي العربي)؛ لذا تراه ينافح تارة عن الرؤية الحداثية، ويتبنى رؤيتها وطروحاتها وحلولها، وتارة يدعو إلى (ثورة ماركسية) تطيح بالطبقة الرأسمالية، وتستبدلها بطبقة (كادحة)، وتراه حين

(١) في البدء كانت الممانعة ص (٩٤).

(٢) جذور أزمة المثقف العربي ص (٩٢).

تعرض الرؤيتان لنقد حاد من المثقف الحدائشي الغربي، يتبنى (الطرح الجديد) ويدعو إلى تبني نتائجه الفكرية والاجتماعية، غير أنه (بالتباين البين) بين التجربتين العربية والغربية... ا.هـ. إنه انحياز غريب وتصور بأن الأمة يمكن أن تغير ثقافتها وقيمها كما يغير الإنسان ملابسه، أو أثاث بيته!

هشام جعيط يتحدث عن تجربة الدراسة في الغرب للطالب العربي، وقد عاش هذه التجربة بكل أبعادها، فهو يقول<sup>(١)</sup>: إن الطلبة العرب الذين وفدوا على الغرب، راحوا يحملون رايات (اليسار الوجودي والبنوية والحدائشة، وما بعدها) كل بحسب الموجة التي (صادفها)، فإذا رجع إلى بلده جلب معه كتاباً أو أكثر، ثم راح يترجمه ويطرحة، لكن الملاحظ أن الترجمة والطرح تأتي متأخرة... ا.هـ.

يقول العرب: لا تطلب الحاجات في غير وقتها، ولا تطلبها من غير أهلها... الترجمة جزء مهم من الثقافة، أما تأخيرها فيقلل من قيمتها..

في اليابان كل بحث جيد يجب ترجمته وطرحة بأسرع وقت وليكن خلال نصف شهر، والمترجم الياباني يعد صاحب أفضل دخل...

(١) أوروبا والإسلام ٢٠٠١م ص (٢٨) دار الطليعة، بيروت.

وأختم بشهادة للدكتور هشام شرابي - أستاذ بيل كلنتون - يتحدث عن (مأزقنا المعرفي) الذي صار يشمل دائرة واسعة، فيقول<sup>(١)</sup>: إن المعرفة وأساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية هي (أنظمة غربية) في أساليبها، وكافة أشكالها، حتى معرفتنا لذاتنا وتاريخنا ومجتمعنا في - القرن العشرين - كلها معرفة غربية في صميمها، فالعلوم الإنسانية والاجتماعية، في العالم الثالث كلها مستمدة من الغرب، وهي تنتج وتعيد إنتاج المعرفة الغربية (محلياً) ومن هنا يمكن أن نفهم أسباب الرفض (المطلق) للغرب عند الأصوليين، وإصرارهم على العودة (للدين والتراث واستعادة الهوية الأصلية) من خلال معرفة تراثية مستقلة، عن كل الأطر والمفاهيم الأجنبية... أ.هـ.

وهنا أود طرح سؤال متواضع جداً: إذا كانت علومنا ومعارفنا ومناهجنا وجامعاتنا كلها غربية، فلماذا ينجح الغرب ونفشل؟ هل العيب في عملية النقل أم في الناقل أم فيمن نقلت إليه؟

## تجربة نظام الساعات

وضعت أمريكا نظاماً لدراسة الطلبة يمنحهم حق اختيار ساعات معينة كحد أدنى وحد أعلى، كما قسمت المواد إلى

(١) النقد الحضاري ص (٣٦) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

متطلبات جامعة يدرسها الكل، وإلى جانبها مواد خاصة بكل كلية وقسم لمواد اختيارية، ومن حق الطالب اختيار الأستاذ الذي يتلمذ عليه، وأن يدرس فصلاً دراسياً ويتغيب آخر، كي يستطيع أن يعمل ويسدد أجور الدراسة.

هذا النظام نقل حرفياً لبعض الجامعات العربية، وبعد سنوات برزت ظاهرة غريبة - خصوصاً لدى الطلبة الأجانب - فهم لا يرغبون في التخرج؛ لذا يتهربون من الامتحانات، درست الظاهرة وشخصت بأن هؤلاء الطلبة لا يرغبون في التخرج، والسبب أنهم يتلقون مكافأة من الجامعة، يرسلون الكثير منها لأهلهم ويعيشون بالقليل المتبقي، فإذا تخرجوا قد لا يجدون فرصة عمل، وقد ضاعت عليهم وعلى أسرهم المكافأة؛ لذا فالأفضل عدم (التخرج) والبقاء في الجامعة لأطول مدة ممكنة... وهكذا لم نلاحظ عند النقل لماذا يشجع نظام الساعات على الدراسة لمدة فصل، وترك الجامعة لفصل، والهدف كسب المال أو الأجور الدراسية، وانعكس الأمر في الجامعات العربية، فعدم التخرج يدر مالأ جيداً، ومن هنا تولدت الظاهرة الغريبة.

### ظاهرة غريبة من اليابان

لي كتاب نشرته (قطر) في سلسلة كتاب الأمة، كان عنوانه: في أعماق التجربة اليابانية، وقد وجدت أن الصين وضعت نظاماً

للضرائب، وعند التطبيق فشل فشلاً ذريعاً مما دفع بالصين للتخلي عنه كلياً، الغريب في الأمر أن اليابان أخذت هذا النظام وطبقته ونجحت أفضل نجاح، وهذا بعكس أكثر التجارب، تنجح عند أهلها وتنشل عند نقلها إلى بلد آخر أو أمة أخرى.

### هيغل والديالكتيك

هيغل فيلسوف ألماني (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) صاحب اتجاه نحو (وحدة الوجود) تأثر بكل من كانت وفخته، وله تأثير كبير على الفكر الألماني.. لقد صاغ فلسفته بأسلوب صعب، يحتمل أكثر من تفسير، وقد برز هذا فيما استشهد تلاميذه - على اختلافهم - فيما كتب، المؤمنون والملاحدون يجدون شواهد تؤيد دعواهم في فلسفة هيغل. وهو صاحب (الديالكتيك) الذي يعني الجدل، وهو طريقة خاصة في البحث وفي المناظرة<sup>(١)</sup>... إلا أنه حوله ليصبح طريقة لتفسير الواقع، بل جعله قانوناً كونياً عاماً، ينطبق على مختلف الحقائق، وألوان الوجود، فالتناقض ليس بين الآراء ووجهات النظر فحسب؛ بل هو ثابت في صميم كل واقع وحقيقته..

فما من قضية إلا وهي تتطوي في ذاتها على نقيضها ونفيها..

(١) فلسفتنا/ السيد محمد باقر الصدر (٢٢١) الطبعة الأولى.

ويعد هيغل أول من أشاد منطقاً يقوم على هذا الأساس.  
لقد أنشأ (فلسفته المثالية) على أساس هذا (الديالكتيك)،  
وراح يفسر المجتمع والتاريخ والدولة، بل كل مظاهر الحياة..  
فالجدل الجديد - عند أصحابه - هو قانون للفكر والواقع؛ ولذا  
فهو طريقة للتفكير، وهو مبدأ يرتكز عليه الواقع في وجوده وتطوره..

### كيف يتصور الصراع

يعتقد هيغل أن كل قضية في الكون تعد (إثباتاً)، وتثير نفيها  
في الوقت نفسه، ثم يأتلف (الإثبات والنفي) في إثبات جديد،  
فالنهج المتناقض أو الجدل، هو الذي يحكم العالم، ويتضمن  
ثلاث مراحل، تدعى الأطروحة والطباق والتركيب، وفي تعبير  
آخر: الإثبات والنفي ونفي النفي، ولهذا المنهج الجدلي يكون كل  
شيء مجتمعاً مع نقيضه، فهو ثابت ومنفي، موجود ومعدوم، في  
وقت واحد..

الذي يهمننا هو الحضارة والتاريخ، يعتقد هيغل<sup>(١)</sup>:

١- كل عصر أو مدة سياسية في (تاريخ الحضارة) تمثل وحدة  
مستقلة، وتمثل ملامحها السياسية والاقتصادية والأخلاقية  
والاجتماعية والدينية والفنية، تمثل كلها جوانب للمجموع  
الحي، ومنها جميعاً يتكون كيان متجانس.

(١) فلسفتنا/ السيد محمد باقر الصدر ص (٢٢٢).

٢- كل مدة أساسية تنمي فكرتها الرئيسية إلى الحد الأقصى، ثم تولد أضدادها أو نقائضها، ويستمر (الصراع) هكذا حتى تتحد المتناقضات في وحدة عليا هي (الموحد أو الجامع)، ويكون عادة أفضل من الفكرة والنقيض.

٣- من جديد ينحل هذا ليتولد عنه (فكرة جديدة ونقيض)، هكذا يستمر الحال ويستمر (الصراع)، حتى تصل الفكرة إلى (المطلق) الذي يخلو من التناقض والصراع.

٤- جوهر (التطور) لدى هيغل يأتي مما يعزز وينتجه (صراع المتناقضات)، حيث تحمل كل فكرة (تناقضاً داخلياً) يدفعها إلى الأمام، ثم لا تلبث أن تتحطم لتتحول إلى شيء جديد هو الأفضل من الفكرة ونقيضها؛ ولأنه يحمل التناقض، وبفعل الصراع فهو يكون فكرة جديدة ونقيضاً، وهكذا تستمر العملية.

٥- تبنى هيغل - وتابعه الماركسيون - بأن كل (عهد) يأتي، ومثله الحضارة، يكون أرقى وأفضل من سابقه، استناداً إلى أن (الموحد أو الجامع) يكون أفضل من الفكرة ونقيضها، وكل ذلك يشكل خطوة للأمام... وهكذا الحال بالنسبة (للحضارة) فاللاحقة تكون أفضل من سابقتها وهكذا...

بل قيل: إن الحضارات في رقي دائم، لا سبيل إلى مقاومته<sup>(١)</sup>. والفكرة قديمة نادى بها بعض فلاسفة اليونان وتبناها هيغل وعنه أخذها الماركسيون وطاروا بها فرحاً!

(١) في معركة الحضارة د. قسطنطين زريق ص (٢٩١) طبعة رابعة.

٦- يطرح هيغل أشبه ما تكون (قاعدة) لكنها يكتنفها الغموض تقول: كل ما كان معقولاً فهو حقيقي وبالعكس فكل حقيقي فهو معقول.. إلا أن هيغل لم يعرف المصطلحين، وجاء تلاميذه، فالؤمن منهم يقول: الدين معقول فهو إذن حقيقي، أو الدين حقيقي وإذن فهو معقول... مثل هذا قيل في الملكية: هي معقولة إذن فهي حقيقية.. أو أنها غير معقولة فهي غير حقيقية. وإذن لابد من تحديد المصطلحين بشكل واضح ودقيق..

### بعض الأمثلة لنظرية هيغل

حتى تفهم نظرية هيغل يستحسن ذكر نماذج مما ذكره:

أولاً:

- أ) الله تعالى يمثل اللامتاهي (فكرة).
- ب) الإنسان يمثل المتناهي (نقيض).
- ج) السيد المسيح يجمع الفكرة والنقيض، فهو إله وإنسان.. وحسب النظرية ينبغي أن يكون السيد المسيح أفضل من الله والإنسان!

ثانياً:

- أ) عهود السلطنة المطلقة في الحكم (فكرة).
- ب) يعقبها عهود فوضى (نقيض).
- ج) منهما يأتي عهد دستوري، هو الأفضل من الاثنين.

### ثالثاً:

- أ) الزهرة في الشجرة المثمرة (فكرة).  
ب) الكأس في الشجرة المثمرة (نقيض).  
ج) الثمرة تأتي من الاثنين، وتكون الأفضل منهما.

### رابعاً:

- أ) الوجود من حيث هو عقيم (فكرة).  
ب) اللاوجود من حيث هو عقيم (نقيض).  
ج) الصيرورة المتولدة من اجتماعها هي الأفضل منهما.

### مناقشة وتحفظ

- ١- نسلّم بوجود الصراع بين الميول والاتجاهات المتضاربة، فهي حقيقة من حقائق الحياة يصعب إنكارها، والقرآن أطلق عليها مصطلح الدفع أو التدافع.
- ٢- على مستوى الأنظمة، كل نظام يحقق أغراضه، ويستوفي وجوده، ولا شيء جديد عنده، لا يلبث أن ينحل؛ ليقوم نظام جديد على أنقاضه وهكذا..
- ٣- يمكن القول: إن الفكرة تستفز وتحرك نقيضها، فمن يطرح الفدرالية في بلد فسيتحرك أنصار الحكم المركزي لمقاومة الفدرالية وهكذا.. أما القول: إن الفكرة يتولد منها النقيض فهذا بعيد.

- ٤- بالنسبة للأمثلة السابقة أرى المثال الثاني هو الأفضل،  
فالحكم المستبد متى انتهى يعقبه نوع من الفوضى، فإذا  
قام نظام قانوني سليم استتب الأمر وهدأت الأحوال.
- ٥- مثال الزهرة والكأس والثمرة تصور نوعاً من التدرج، وهو  
يختلف من نبات لآخر، والفكرة والنقيض غير واضحة هنا.
- ٦- القول: إن كل عهد يأتي يكون أرقى وأفضل من سابقه، ومثله  
الحضارة غير مسلم، فقد تحصل انتكاسة، وقد تكون إدارة  
العهد بأيدي جهلة أو عنصريين أو طائفيين فتعود الأمور  
إلى الوراء.
- ٧- الحضارة تتكون من أمور مادية ومعنوية، المباني والطرق  
والجسور مادية والقوانين والتشريعات والثقافة والآداب  
والفلسفة غير مادية.. والحضارة ليست كائناً عضوياً؛ لذا  
لا مانع أن تتقدم الآداب والفنون، على حين تتأخر النظم  
السياسية والاجتماعية، وقد تتقدم العلوم والمعارف وتتأخر  
الأخلاق..
- ٨- يقول المؤرخ توينبي - صاحب كتاب تاريخ العالم<sup>(١)</sup>: لقد  
ارتقى علمنا فبلغ درجة لم يسبق له أن بلغها، ومع ذلك،  
فقد انتكسنا في نفس الوقت في الحروب الطبقيّة والقومية  
والعنصرية، ووصلنا إلى أعماق قد لا يكون سمع بها أحد  
قبلنا... أ.هـ.

(١) تفسير التاريخ للكاتب ص (٧٤) طبعة ١٤١٤هـ.

## صراع الطبقات

أخذت الماركسية فكرة الصراع عن هيغل، لكنها نقلتها من الصراع الفكري إلى الصراع بين طبقات المجتمع من أجل المادة وبسببها، وتصورت تاريخ العالم - من بعد الشيوعية الأولى - إلى تاريخ الصراع بين الطبقات، حيث تقف موقف المعارضة الدائمة لغيرها من الطبقات، فتقوم حرب مستمرة، تخفي حيناً لتظهر حيناً آخر، حرب تنتهي عادةً إما بإعادة بناء المجتمع كلياً، وبشكل أساسي، أو بتدمير كافة الطبقات المتصارعة<sup>(١)</sup> ... أ.هـ.

وهذا الصراع الشامل للعالم مر بمراحل:

### مراحل الصراع الطبقي

تعتقد الماركسية أن العالم مر في تاريخه بصراعات عدة، وبقي أمامه مرحلة أخيرة، وهذه المراحل هي<sup>(٢)</sup>:

- ١- مرحلة الشيوعية الأولى أو المشاعية البدائية أو الجماعية: حيث كان كل ما على الأرض لكل من عليها؛ لذا لم يكن ثمة صراع.
- ٢- مرحلة الرق: بعد أن اخترع الإنسان بعض الأدوات انتقل من الشيوعية الأولى إلى (عهد الرق)، حيث انقسم الناس إلى أحرار وعبيد، واشتعل الصراع بينهما.

(١) تفسير التاريخ لصديقي ترجمة الجوادي ص (٩٠) الطبعة الأولى.

(٢) المرجع السابق ص (٨٩).

٣- مرحلة الاقطاع: بعد أن عرف الناس الزراعة، وتوسعوا فيها، انقسم الناس إلى (رجال إقطاع وعبيد الأرض)، واشتعل الصراع بين سادة الاقطاع، الذين يملكون الأرض وما عليها من إنسان وحيوان.

٤- مرحلة الرأسمالية: حين تحولت المجتمعات نحو الصناعة، فانقسم الناس إلى (أرباب رؤوس المال والعمال)، واشتعل الصراع بين الطرفين، وسينتهي الصراع بانتصار العمال، وعندها يجري التحول نحو مرحلة الشيوعية الثانية.

٥- مرحلة الشيوعية الثانية: وهنا ينتهي الصراع ويتوقف، وتحل الخلافات بالود والحوار، وبناء على ذلك تنتفي الحاجة للدولة والجيش والشرطة، وجميع وسائل القهر والاستغلال... أ.هـ.

وقد وصف د. رجاء جارودي هذه المراحل بأنها (خيالية) وإن صدقت في الغرب، فالعالم خارج الغرب لم يعرفها ولم يمر بها<sup>(١)</sup>...

المهم أن الماركسية أصيبت (بالسكتة القلبية والدماعية) وتوفيت، وتوزع الورثة (التركة) قبل أن تصل للمرحلة الخامسة، والتي تبدو نهاية غريبة، فالعالم يتصارع ألوف السنين، ودون

(١) ماركسية القرن العشرين.. وكتب ذلك يوم كان سكرتيراً للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي.

مقدمات يتوقف الصراع، وتحل كافة القضايا بالحوار، لقد تحول الأسد إلى (أرنب)، وإن كنا أكبر المتضررين من هذا السقوط والشكوى لله تعالى..

## صراعات مستجدة

(الآن تورين) يسجل صراعات جديدة، طرف يتبوأ (قمة في المجتمع) وأطراف مهمشة مقصية، لا يقدررون على معارضة، وهم منقسمون على أنفسهم، فريق منهم يناضل في سبيل (الدفاع عن ثقافته) المهددة بالأخطار، وفريق ثالث يحاول جاهداً (وصل القطبين)..

يقول الآن: إن الذين يتبوءون (قمة المجتمع العالمي اليوم) ينتقلون في أرجائه، يراكمون الثروات، ومعها المعلومات، يضعون في متاحفهم شذرات من كل الثقافات، إنهم يؤمنون (بالعلم والتقنية)، كما يؤمنون (بحرية السوق) وبغياب الرقابة الثقافية السلطوية. بينما يقبع آخرون في أدنى دركات المجتمع المذكور، وخاصة أولئك المستبعدون أو المطروحون على هوامشه، فهم لا يقوون على معارضة الجماعة التي تخدم (مصالح المركز) أيما خدمة إلا بخصوصياتهم..

إن (المقهورين) منقسمون على أنفسهم، فريق يطمح للتخلص من (هامشيته) والدخول إلى دائرة (الضوء)،

والمشاركة الفعلية بالثقافة الجماهيرية أو النزول إلى (ساحة  
الوعى الاقتصادية) .. فريق ثانٍ يناضل في سبيل الدفاع عن  
(ثقافته المهددة بشتى الأخطار) وبين الفئتين (يتيه) الكثير  
من الأفراد في خضم موقف وسطي، تعصف به الأنواء،  
بينما يتصرف أفراد آخرون محاولين الوصول أو التوصل بين  
(القطبين)، بينما التباعد جارٍ يومياً..

وهكذا نجد (مهاجرين) عازمين على (الانصهار) في  
المجتمع الجديد، وقطع العلاقة مع ثقافتهم الأصلية، التي  
تفرض عليهم وخاصة (النساء) فهناك ضغوط لا طاقة لهم  
على احتمالها، كما نجد آخرين عازمين (بالعكس) على طرد  
الغاصب، وخاصة في بلدان المركز<sup>(١)</sup> ... أ.هـ.

يلاحظ أن (آلان تورين) يعد كلاً من التوقع على الهوية،  
وكذلك الذوبان الثقافى من الأخطار الكبرى..

لقد أطلعت (النص السابق) لمهاجر عربي وسألته رأيه  
فيه، وفي هذا النوع الجديد من الصراع فقال: إن تورين يصف  
بصدق وموضوعية ما تعانيه مجتمعات (المهاجرين) فالصراع  
حاد وجاد ولا حل في الأفق القريب..

قلت: وما موقف الدول التي جاء منها المهاجرون؟

(١) ما هي الديمقراطية، آلان تورين، الطبعة الثانية ص (٢٢١).

قال: هذه الدول لا تقدر ما يعاني المهاجر وهي تنظر لمصالحها قبل مصالح المهاجر، ولا توجد دراسة جادة، ومع توجه الغرب نحو اليمين سوف تتعقد مشكلات المهاجرين، وربما اشتعل الصراع وأخذ شكلاً حاداً، يتطلب التدخل من الهيئات الدولية.

إنه صراع جديد وقد يتفجر في أي وقت وبصورة دموية مؤلمة.

### سفر يد هونكه : صراع جديد

المفكرة الألمانية المعروفة وصاحبة كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) ، وكتاب: من أفول الغرب إلى طلوع أوروبا: تغيير العقلية وامتحانات المستقبل تصرح سفر يد هونكه بأن حضارة الغرب تسير نحو الأفول، لكنها لا توافق ما يراه أمثال نيتشه واسبينجر من حتمية سقوط هذه الحضارة.

وتفرد بين حضارة الغرب وأهلها، فأوروبا لن تزول، أما (الزائل) فهو (الخاصية الغربية لأوروبا) ، والجديد عندها: أن الانهيار الشامل سيكون لكافة (القيم) في الغرب المسيحي، وهذا شرط أساسي، كي (تكتشف) أوروبا (هويتها الحقيقية) ، ومن أجل أن تحقق نهضة في الفكر الأوروبي، وتطلق مكتشفة هويتها الحقيقية.

إنها - سفريد - تخالف استبنجلر بإيمانه بوجود (قانون طبيعي قاهر) يسري على كل الحضارات، بحيث ينقلها من نشوء إلى نمو ثم إلى ازدهار فنضوج فشيخوخة فسقوط (دورة حضارية كاملة) <sup>(١)</sup> ... ا.هـ.

وهي ترفض كل فكرة مماثلة، مثل نظرية ابن خلدون في دورة الحضارة.. طرحت سفريد نظريتها في الصراع وتفسير التاريخ في الخمسينيات من القرن العشرين، وتعتمد على (عوامل نفسية وفكرية) معاً.

### ملخص النظرية

تولي سفريد الصراع الثقافى قيمة كبرى: وترى أن أي شعب يصرف ويبعد عن (ثقافته) وعن ذهنيته ومعتقداته، عن دينه وقيمه وتصوراته، إما عن طريق (الاحتلال أو التبشير)، ثم تتغلب (ثقافة أخرى على ثقافته) هنا يمر (الشعب المغلوب) بمدة تتغير فيها (قيمه) تغيراً كاملاً، ويحدث له (خلل في توازنه وفساد في أخلاقه)، هذا الفساد الكبير يأتي عقب (ذلك الانهيار) فتسود (مدة أو مرحلة) نوع من الانسجام مع الجديد، والتعامل معه إيجابياً، فتحدث (نهضة ثقافية) قد توصل إلى (حضارة) مزدهرة، لكن هذا الازدهار لا يلبث أن يتوقف، وليتحول شيئاً فشيئاً إلى (ركود) يعقبه تقهقر وانهيار..

(١) مجلة الفكر العدد (٥٥) ص (١٩) بيروت.

هذه (الدورة) ليس سببها شيخوخة الحضارة - كما يراها البعض - وإنما لأن عقلية الشعب راحت تعارض (البنى الفكرية) تلك التي جاء بها (السيد الغالب) بوصفها غير مناسبة، وهي تحدث - مع الوقت - (فراغاً نفسياً) فينبذها الناس، ثم يفرز هذا الفراغ (أزمة فكرية ونفسية) خطيرة، لكنها مع ذلك ضرورية؛ لأنها تمهد لظهور (العقلية الأصلية) من جديد، تلك العقلية التي جرى (كبتها زمنًا طويلاً) وحبست..

إن مهمة (الأزمة) أن تهيئ (ظروفًا مواتية) لنهضة (ثقافية جديدة) تقوم على قاعدة (العقلية الأصلية)، وتسد الفراغ الفكري، ومن مهامها أن تطلق (قوى فكرية) طبقاً لطبيعتها الذاتية، وقوانينها الخاصة..

هذه النظرية تحاول سفريد أن تطبقها على الحضارة الغربية، ونظمها الخاصة وعلى (أزماتها الفكرية والنفسية) فكيف تفعل ذلك؟

## تطبيق النظرية

تعتقد سفريد أن التبشير المسيحي أخضع أوروبا إلى (تناقض) بين البنية الفكرية - منذ عهد النهضة والإصلاح البروتستانتي - فقد جرى نبذ للعناصر غير المناسبة - منذ

عصر التنوير - لتظهر (عناصر جديدة) من خلال (الأنقاض المتكدسة) في أوروبا، والتي تشملها الأزمة، تلك التي أنهكتها، دون أن تتمكن من القضاء عليها.

هنا تدرس سفريد العناصر (غير المناسبة)، بعد دراستها للتصورات الدينية القديمة، وما جاءت به المسيحية، التي تحوي على تناقض دائم، بحيث لا يمكن تخطيه؛ لأنه يفصل (المفاهيم فصلاً) غير قابل للتوفيق، فكل شيء: إما خير أو شر، طاهر أو نجس، حق أو باطل، الله أو الإنسان، الدنيا أو الآخرة، الكنيسة أو الدولة، الديني أو الدنيوي، الأرض أو السماء، الروح أو الجسد..

إن مذهب (الثنوية المسيحي) قد عاد على أوروبا (بالويل)؛ لأن الشعوب الجرمانية - وسفريد منها - كانت تؤمن ب (وحدة الكون) وبوحدة المتناقضين، إيماناً عميقاً راسخاً، وقد قامت على مر العصور حركات تقاوم مذهب الكنيسة (الثنوي) بعنف وشراسة، لكن الكنيسة بقيت متمسكة بمذهبيها، رامية كل مخالف لها بالكفر والهرطقة، بل كل من يعتق (ديناً آخر) كذلك، وقد أدى ذلك لأزمة (فكرية قوية)، لدى كل من لم يصدق بمذهب الكنيسة.

إن أوروبا أخذت بالتغلب على هذه (الثنوية) لكنها لم تستنفد كل ما في وسعها، وهي اليوم مقبلة على مرحلة من تاريخها - قد

طال انتظارها - ومن المؤمل أن تنطلق خلالها، كل قواها الدينية تحاول سفريد تطبيق (نظريتها) على أوروبا، وحبذا لو فعلت ذلك (خارج أوروبا)، لنعلم كيف تصدق هذه النظرية..

لقد قال د. رجاء جارودي: بأن (المادية التاريخية) صدقت على أوروبا، لكنها لم تصدق في مكان آخر.

ولعل من المفيد أيضاً دراسة الفكر الروماني وأثره الكبير على حضارة الغرب، والعلاقة مع المسيحية، وكيف تعايشت ثقافتان مختلفتان في حضارة واحدة؟

## الصراع بين الحق والباطل

يمكن القول: إن التصارع بين الحق وأهله والباطل وأنصاره هو الأقدم والأدوم، إذ لا يتصور أن ينتهي، فما دام الإنسان يدب على وجه الأرض فإن هذا الصراع مستمر، تتغير المسميات، وتذهب أمم وتقوم حضارات وتسقط حضارات، لكن هذا النوع مستمر..

جولات تتبعها جولات، انتصارات تتلوها هزائم، لكن الصراع مستمر، الإنسان عاشق للصراع، بل راح يعلم الحيوانات الأليفة كيف تتصارع، فمن تناطح الأكباش، إلى تهارش الكلاب، إلى تصارع الديكة، وأحياناً يدخل الإنسان طرفاً كما في مصارعة الثيران.

نوع من الغزال يعيش في كندا له قرون كأغصان الشجر،  
فإذا تصارع اشتبكت قرونها فيعجز عن (فك الاشتباك) ليموت  
مشتبكاً..

الأحظ أن الحيوانات الأليفة تعيش بسلام ووئام فإذا حضر  
الطعام دخلت في صراع، ولحسن حظها إنها لا تعرف (الملكية)  
مثل الإنسان؛ لذا لا يطول تصارعها وتهارشها وتناطحها.

يلاحظ أن الاعتداء على (قرد) يستفز إخوانه ويثيرهم  
وقد يهاجمون المعتدي..

إذا ترك للحيوانات - غير الأليفة - الحرية في العيش فهي  
تقيم مستوطنات لكل صنف منها، لاحظت ذلك في الحديقة  
الكبيرة في (كينيا) ما بين العاصمة وميناء (محباسا) على  
المحيط الهندي، فكل مجموعة اختارت الأرض التي تناسبها،  
والنباتات التي تتغذى عليها.

ومما لاحظته أن (القردة) تزحف نحو الشارع العام؛ لأن  
المسافرين يقدمون لها طعاماً جيداً كالموز والفاكهة، وهي تجلس  
على حافة الطريق ولسان حالها يقول: لله يا محسنين!

## إحصائية للآيات

رجعت إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وتابعت مصطلح الحق، والباطل.. وجدت الحق تكرر أكثر (٢٩٠) مرة، في مختلف السور، أما (الباطل) فقد ورد (٣١) مرة فقط، لكنه يذكر (كمعادل) للحق في أكثر الآيات.

## نماذج قرآنية

هذه نماذج قرآنية تتعرض لصراع الحق والباطل:

- ١- ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ (غافر: ٥).
- ٢- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سبأ: ٤٣).
- ٣- ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ (الرعد: ١٧).
- ٤- ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلكمُ الْوَيْلُ مما نَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١٨).
- ٥- ﴿وَيُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ (الكهف: ٥٦).
- ٦- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ (التوبة: ٢٥).

## آية الأنبياء (٨١)

تسجل الآية أن الله تعالى يرسل الأنبياء والرسل، مبشرين ومنذرين، لكن الكفار يجادلون بالباطل ليدفعوا الحق، ثم لا يكتفون بذلك بل يتخذون من آية الله هزواً وسخرية..

يقول سيد قطب يرحمه الله<sup>(١)</sup>: الحق واضح، لكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه، وهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون بالعذاب لا يبيغون اقتناعاً، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون.

وهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن، ولا أن ينتفعوا به... وبسبب استهزائهم وإعراضهم، فلن يهتدوا إذن أبداً... أ.هـ.

معلوم أن من يطلب الحق ويريد الهداية لا يستخدم السخرية والاستهزاء، فإن فعل ذلك فهذا الطريق سيدفع بصاحبه بعيداً عن الحق، ومثل ذلك المعاند والمتكبر والعنصري الذي يرى نفسه وقومه وحضارته فوق الداعين للحق، فهذا يصعب عليه قبول الحق ممن يحتقره ويستصغره، وبالتالي يتعذر عليه قبول شيء منه.

(١) الظلال ٣٩٣/٥، الطبعة السادسة.

## آية غافر (٥)

سورة غافر تعالج الصراع بين الحق والباطل بشكل عام.

يقول سيد قطب<sup>(١)</sup>: هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر، قضية الدعوة والتكذيب، وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق.. وفي ثنايا - هذه القضية - يأتي موقف المؤمنين المهتدين الطائعين، ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم، واستجابة الله لدعائهم، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم.

وجو السورة كله كأنه جو معركة، وهي بين الحق والباطل، بين الإيمان والطغيان، بين المتكبرين المتجبرين في الأرض، الذين يأخذهم الله بالدمار والتكيل، وتتسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان، حين يجيء ذكر المؤمنين.

هذا الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة - وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتكرر بشكل ظاهر، وتعرض في صورها العنيفة الرهيبة المخيفة، متناسقة مع جو السورة كله، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة..

(١) الظلال ٥/١٩٥، الطبعة السادسة.

على العموم فالسورة كلها تبدو وكأنها مقارِع ومطارق تقع على القلب البشري، وتؤثر فيه بعنف، وهي تعرض مشاهد القيامة، ومصارع الغابرين، وقد ترق أحياناً، فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق، وهي تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين، أو هي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية، وتضرب بعض الأمثلة، التي ترسم جو السورة وظلها في هذه وتلك..

من مصارع الغابرين: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ  
وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ  
وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ  
عِقَابِ ۙ﴾

يستعرض الكاتب السورة من أولها حتى ينتهي لجدال الكفار في آيات الله، فيقول<sup>(١)</sup>: الكفار وحدهم - من بين هذا الوجود الهائل يشذون - وهم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون، وهم - بالقياس لهذا الوجود - هم أضعف وأقل من النمل بالقياس لهذه الأرض، وهم حين يقفون في صف يجادلون في آيات الله، ويقف الوجود كله الهائل في صف معترفاً بخالق الوجود، مستنداً إلى قوة العزيز الجبار، إنهم في هذا الموقف

(١) الظلال ١٦٥/٥ مرجع سابق.

مقطوع بمصيرهم، مقضي في أمرهم، مهما تبلغ قوتهم، ومهما يتهيأ لهم من أسباب المال والجاه والسلطان.. فمهما تقلبوا وتحركوا وملكوا واستمتعوا، فهم إلى اندحار وهلاك وبوار، ونهاية المعركة معروفة، إن كان ثمة معركة يمكن أن تقوم بين قوة الوجود وخالقه، وقوة هؤلاء الضعاف المساكين..

لقد سبقتهم أقوام وأحزاب - على شاكلتهم - توحى عاقبتهم بعاقبة كل من يقف في وجه القوة الطاحنة العارمة، التي يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله..

إنها قصة قديمة من عهد نوح عليه السلام، معركة ذات مواقع متشابهة، في كل زمان، قصة الرسالة والتكذيب والطغيان - على مدى القرون والأجيال - كما تصور العاقبة في كل حال.

رسول يجيء، فيكذبه طغاة قومه، ثم لا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة، إنما يلجأون إلى منطق الطغيان الغليظ، فيهمون أن يببطشوا بالرسول، ويموهون على الجماهير بالباطل، ليغلبوا به الحق، هنا تتدخل يد القدرة الباطشة، فتأخذهم أخذًا يعجب ويدهش، ويستحق التعجب والاستعراض: (فكيف كان عقاب)؟

لقد كان عقابًا مدمرًا قاضيًا عنيفًا شديدًا، تشهد به مصارع القوم الباقية وآثارها... ومتى حقت كلمة الله على أحد، فقد وقعت وقضي الأمر، وبطل كل جدال.

هكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة، حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، بين الدعاة لله الواحد، والطفاة الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق..

إنها معركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية، أما ميدانها فهو أوسع من الأرض؛ لأن الوجود كله يقف مؤمناً مسلماً، ويشذ منه الذين كفروا، يجادلون في آيات الله، وحدهم دون سائر الكون الكبير، ونعلم نهاية المعركة - غير المتكافئة - بين صف الحق الطويل الضخم، وشرذمة الباطل مهما يكن قلبها في البلاد، ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع.

هذه الحقيقة - حقيقة المعركة - والقوى البارزة فيها، وميدانها في الزمان والمكان، يصورها القرآن لتستقر في القلوب وليعرفها أولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان، فلا تتعاضم قوة الباطل الظاهرة في مدة محدودة من الزمن، ورقعة محدودة من المكان، فهذه ليست الحقيقة، إنما الحقيقة هي التي يصورها كتاب الله، وتتطق بها كلمة الله، وهو أصدق القائلين، وهو العزيز العليم... أ.هـ.

إنها (أم المعارك) القديمة قدم العالم، والمتجددة مع الأيام، معركة بين طرفين، كلم طرف له حشده في الصراع، والبحث عن أدوات مستجدة، وعن حلفاء أقوياء، معركة لا

يذهب بجديتها وجديتها الزمن ولا الأيام، تتساقط الأمم، وتنتهار حضارات، وتقوم مكانها غيرها لكن المعركة مستمرة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وينادي: لمن الملك اليوم؟!

للحق أهله وأنصاره، وللباطل كذلك، فإذا كان المؤمن ضعيفاً، وكان الكافر جلدًا قويًا، فالهزيمة للأضعف، من هنا نفهم مقولة عمر الفاروق حين كان يردد: أشكو إلى الله جلد الفاجر وضعف المؤمن.

فمتى اعتقد المؤمن أنه منتصر لا محالة، واطمأن لذلك، ولم يحسن تسويق قضيته، ولا أحسن التحالف، فهو سيخسر المعركة.

وقد خسر بعض الأنبياء - وهم أفضل وأصدق خلق الله - معارك، فلو كان النصر لا يتوقف على جهد صاحبه لوجب أن ينتصر أنبياء الله في كل مواجهة، فإن اعتقد الإنسان المسلم أنه (منصور)؛ لأن الحق معه، فقد يخسر معارك الدنيا، وقد تلحق به هزائم متوالية، وللشيخ محمد عبده كلام صريح في هذا.

### محمد عبده والعناية بالسنن

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ (الكهف: ٥٥).

ولأهمية السنن فقد طالب الشيخ محمد عبده يرحمه الله أن يدرس العلماء هذه السنن الكونية، كما درسوا علوم الفقه وأصوله وغيرها<sup>(١)</sup>..

وقد نقل عنه (رشيد رضا) هذا الاهتمام، وضرب مثلاً بما يعتقد اليهود من أن الله تعالى اختارهم من بين جميع البشر، وهو يحاييهم ويتجاوز عنهم، ما لم يفعله مع الأمم الأخرى، ورد كل ذلك بأنه يناقض (العدل الإلهي)، فالله تعالى لا يحايي أحداً، ولا يفرق بين عباده، فهو يرزق الكافر كما يرزق المؤمن، ثم يحاسب كل واحد عما قدم.. ويقول: لقد جاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه إنما تنفذ وفق (سنن حكيمة) وطرائق قويمه، فمن سار على (سننه في الحرب) ظفر بمشيئة الله، وإن كان ملحدًا أو وثنيًا، ومن تنكب عنها خسر وإن كان صديقًا نبيًا، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في موقعة أحد... اهـ.

ومعلوم أن الكون مشحون بالسنن، بعضها تخص الإنسان، والبعض تخص الكون، هذه السنن لا تعمل منفردة، بل متداخلة متشابكة متعاونة متكاملة، ومطلوب من الإنسان معرفتها بشكل جيد ليحسن التعامل معها، كما لا يمكن تجاهلها ولا القفز عليها..

فإذا كانت السنن كذلك فما موقع (المعجزات) منها؟

(١) تفسير المنار ٤/١٣٩.